النفحة الثالثة عشرة: الحِلْمُ ثمرة رمضانية

من أبرز الفضائل التي دعانا الإسلام إليها ورغّبنا في التخلق بها ـ الحلم ـ لأن الحلم ضابط للنفس عند ثوران الغضب، وهو مظهر من مظاهر السكينة ورجاحة العقل، ودليل على النضج والأناة.

ويعتبر الصوم عاملاً من أهم العوامل التي تسهم في ترسيخ هذا الخلق الكريم، وتنمية نسيجه في الإنسان، ذلك لأن الواحد منا يعيش في مجتمع تتباين فيه الآراء، وتختلف فيه الأفكار، وتموج فيه تيارات متصارعة على مبادئ وأهداف كثيرة، ويأتي الصوم ليفرض على المسلم ضبط نفسه ولسانه عن الفسوق بشتى أنواعه، وكظم الغيظ في الوقت الذي يستفز فيه المرء من قبل سفيه أو جاهل، قال ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ**»[1] مَرَّتَيْنِ.

ومن أجل هذا أعد الله سبحانه وتعالى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الأبرار، الذين يكظمون الغيظ، ويتحكمون بالأعصاب حيال وجود ما يدعو للغضب، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 133، 134].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: (فالغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته وما يغلبه الإنسان إلّا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات،

(1) رواه البخاري، 2/ 670، رقم: (1795).

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين، وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن، لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق، إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب ودخان يغشى الضمير، فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب فهو الانطلاق من ذلك والرفرفة في آفاق النور والبرد في القلب والسلام في الضمير)[1].

ولقد بشَّر النبي ﷺ كاظم الغيظ بهذه البشارة الرائعة، فقال ﷺ: **«مَن كظَمَ غيظاً وهو يستطيعُ أن يُنفِّذهُ دعاهُ اللهُ يومَ القيامةِ على رُؤوسِ الخلائِقِ حتَّى يخيرهُ في أيِّ الحُورِ شاءَ»**[2].

فالمسلم الذي يستعلي على شهوة الغضب ويسيطر عليها، يكون قد حقق الانتصار على الشيطان الرجيم، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، ويعمل على إثارة براكين الغضب في كيان العبد، ومن هنا أمر النبي ﷺ من غضب أن يتوضأ وعلَّل ذلك قائلاً: **«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضَّأ»**[3].

وهل يدعى الإنسان حليماً، أو يحظى بهذه السمة النبيلة المباركة إلّا عندما يضبط أعصابه فلا يغضب ولا يثور، فهذا النبي ﷺ الذي جبله ربه تبارك وتعالى على جبلة الخلق والحلم، تصف لنا حلمه أمنا عائشة رضي الله عنها فتقول: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلّا أن تنتهك حرمة الله عز وجل[4].

وتعالوا معي لنقف عند بعض المشاهد التي تجسد لنا حلم النبي ﷺ ورحابة

(1) في ظلال القرآن، 1/ 475.
(2) رواه الترمذي، 4/ 372، رقم: (2021)، وحسنه.
(3) رواه أبو داود، 4/ 249، رقم: (7484).
(4) رواه البخاري، 3/ 1306، رقم: (3367).

صدره، سواء مع الصحابة أو أعدائه، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (إن الله تبارك وتعالى لما أراد هدى زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلّا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلّا اثنتين لم أخبرهما منه، يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلّا حلماً، فكنت أتلطف له لئن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، قال: فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال يا رسول الله: قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام وكنت أخبرتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً، وقد أصابهم شدة وقحط من الغيث وأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم من يغيثهم به فعلت، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه ـ أراه علياً ـ فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله ﷺ، قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت له يا محمد: هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال: **«لا يا زفر، ولكن أبيعك تمراً معلوماً من حائط إلى أجل كذا وكذا، ولا تسمّي حائط بني فلان»**، قلت: نعم، فبايعني ﷺ فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالًا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، قال: فأعطاها الرجل وقال: **«اعجل عليهم وأغثهم بها»**.

قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ونفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة دنا من جدار، فأخذت بمجامع قميصه ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب بمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال: ونظرت إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل به ما أرى، فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي هذا عنقك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: **«أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر أن تأمرني بحسن**

الأداء وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً من غيره مكان ما رعته».

قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر فقلت: ما هذه الزيادة قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟، قال: لا فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: نعم الحبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت وتفعل به ما فعلت؟ فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلّا اثنتين لم أختبرهما منه، يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلّا حلماً، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وأشهدك أن شطر مالي صدقة على أمة محمد ﷺ فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم، قلت: أو على بعضهم، فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ فآمن به وصدقه وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مدبراً رحم الله زيداً)[1].

أرأيتم يا سادة كان يكفي أن يشير رسول الله ﷺ إشارة بطرف إصبعه لتكون رقبة اليهودي على حد سيف ابن الخطاب، فالرجل قد تطاول وأساء الأدب، ومع مَن؟ مع صاحب المقام المحمود ونبي الأمة، وبحضور من؟ بحضور فاروق هذه الأمة عمر رضي الله عنه، فلو كان قائداً أو طاغية من طواغيت هذا الزمان، لأمر بتقطيع الرجل إلى مائة قطعة ولنكّل به تنكيلاً يكون عبرة لمن اعتبر!! ولكنه النبي ﷺ صاحب القلب الرحيم والحلم العظيم.

لقد استطاع أن يأسر قلب اليهودي بهذا الموقف الحليم، وأدخله الإسلام عندما زاده عن حقه بسبب ترويع عمر له، وهكذا وبهذا يكون العظيم عظيماً...

(1) صحيح ابن حبان، 1/ 522، رقم: (288). والحاكم في المستدرك، 2/ 37، رقم: (2237) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «أن أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء أو سجلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**[1]، وفي بعض الزيادات أنه قال: اللَّهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً[2].

إن الأعرابي حديث عهد بالإسلام، ولا يعرف شيئاً عن الآداب الاجتماعية، واللطائف الأخلاقية الوليدة يومذاك، فلماذا يعنف بهذا الشكل؟ ولماذا يزجر بهذه الطريقة المؤلمة؟

وصورة الأعرابي هذه تتكرَّر في كل زمان ومكان، فكم من غير المسلمين هداهم الله تعالى، وعندما دخلوا مسجداً أو مركز تجمع للمسلمين قوبلوا بفظاظة القول وقسوة السلوك، مما جعل بعضهم يرتد عن الإسلام ويعود لكفره، ويقول: دينٌ أخلاقُ أهله هكذا لا يصلح لي، ويقول البعض الآخر: الحمد للَّه الذي عرَّفني بالإسلام قبل أن أعرف المسلمين.

أيها السادة:

إن صور الحلم هذه تمثَّلت بالنبي ﷺ وهي دروس سامية للعاملين في حقل الدعوة والإرشاد، وللذين سخرهم الله تعالى لتبليغ دينه ورسالة نبيه ﷺ، ألا فلنتق الله في الناس، فإن الناس في هذا الزمان بأمسِّ الحاجة لمن يأخذ بأيديهم برفق ولطف وحلم إلى شاطئ الإسلام، ولنبتعد عن أسلوب القسوة والهجوم والعنف فإن ذلك سبب لتنفيرهم من الدين...

ولئن سألت بعض الذين ارتدوا عن الإسلام بعد أن دخلوا فيه عن سبب ارتدادهم، فلسوف يجيب بأن مرد ذلك لسوء الخلق والمعاملة، بحيث لو جاء إلى من يعلمه أساسيات الإسلام وأصوله بعد إسلامه، فلسوف تصوب إليه السهام من كل مكان: إذا زنيت ترجم، إذا شربت خمراً تجلد، إذا رجعت إلى دينك تقتل، إذا

(1) رواه البخاري، 5/ 2270، رقم: (5777).

(2) رواه الترمذي، 1/ 275، رقم: (147)، وقال: هذا حديث حسن.

صافحت امرأة تكون قد ارتكبت كبيرة!!

لا حول ولا قوة إلّا باللّه، أهكذا يعرض الإسلام؟ وبهذا الأسلوب وهذه التعاليم يثبت الرجل على دينه، إنه دون أدنى شك إذا سمع هذه التعاليم فإنه سوف يرتد مباشرة ويعود إلى كفره، ويقول: دين كله قتل ورجم وجلد وكبائر لا يصلح لي، إن ديني كله رحمة ومسامحة ومحبة...

ونحن لا نقول بجواز هذه الأشياء، معاذ اللّه، وكلها حق ولا يجوز اقترافها، ولكن هل هذا زمنها ووقتها، وهل من الحكمة استقبال الداخل إلى الإسلام بها، أم من الحكمة أن نعرض عليه من الدين ما يرغبه فيه، ويحببه في تعاليمه، ويغرس في قلبه حب اللّه تعالى الذي هداه إلى الإيمان، وحب رسول اللّه ﷺ الذي دلّه على طريق الحق ومسلك الصواب، ثم نتدرَّج معه فنفقهه في أحكام الشريعة وتعاليم الهدى، فمن يتحمَّل وزر هؤلاء إن هم ارتدوا...

أيها الصائمون الأكارم:

إن الأخلاق الفاضلة هي وسام الأمم، وسبب نهضتها وتقدمها، وإن الحلم هو الذي يضبط الأمور لتسير في سككها، ويهدئ النفوس لئلا تحار في واقعها، ويجعل من الإنسان رجلاً حكيماً بوسعه أن يتصدى لأي موقف، أو لأي سفيه يريد التطاول عليه، ولقد أنزل اللّه تبارك وتعالى على نبيه ﷺ قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199].

ما أجمله من توجيه رباني إلى صاحب الدعوة ﷺ، وما أجدر الدعاة أن يتبعوا هذا التوجيه السماوي الحليم، خذ العفو في صحبتك ومعاملتك مع الناس، ولا تطالبهم بالكمال في الأمور، ولا التمام في الأعمال، فإنهم بشر، قد ركّبوا على الضعف والخطأ، واعف عن زلاتهم ونقصهم ـ إلّا في الأصول والعقيدة فلا تغاضي ـ والأمر بالعرف وهو الخير المعروف الذي لا لبس فيه ولا تعقيد ولا غموض، والذي يكون مركزاً لاجتماع والتفاف النفوس حوله طيِّعة لينة، وأعرض عن الجاهلين، وعدم الاكتراث لجهل الجاهل، والتهوين من شأن ما يجهلون به من الأفعال، لأن التصدي للجاهل فيه مضيعة للوقت دون جدوى، وفيه من اللجاج

والعناد والجدل ما يشوب القلوب بالضغينة والأحقاد، بل إن الإعراض عنهم والسكوت على جهلهم يذلل نفوسهم ويروضها.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
سكتُّ عن السفيه فظن أني عَييت عن الجواب وما عييت

لقد كان النبي ﷺ أحلم الناس، في معاملته وسلوكه وقوله وتبسمه ومزاحه ورحمته، حتى أسر القلوب وربطها بعلام الغيوب، وحتى أصبح حبه في القلوب أثمن من كل شيء.

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هم الرحماء
وأبديت حلمك للسفيه مدرباً حتى يضيق بحلمك السفهاء

وما أجمل ما سطره الصحب الكريم رضي الله عنهم، ومن بعدهم من السلف الصالح والتابعين في الحلم، فلقد قالوا فيه دراً لامعة منيرة من حقنا وحق هذا المقام أن نسجل بعضها.

قال سيدنا معاوية رضي الله عنه: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلّا بقوة العلم.

وقال أبو ذر رضي الله عنه لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى.

ومما روي في حلم سيدنا معاوية رضي الله عنه، أنه كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه أرضاً مجاورة لأرض معاوية، وكان في كل أرض عبيد لعمارتها، فدخل عَبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير واغتصبوا منها قطعة، فكتب عبد الله بن الزبير إلى معاوية كتاباً جاء فيه:

أما بعد يا معاوية: فإن عبيدك قد اغتصبوا من أرضي، فمرهم بالكف عنها، وإلا كان لي ولك شأن والسلام.

فلما قرأه قال: ما تقول يا يزيد؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً أوله عنده

وآخره عندنا يأتيك برأسه ويستريح.

قال معاوية: عندي أصلح من ذلك يا بني، قال: وما هو؟ قال: عليَّ بدواة وقرطاس، فكتب إليه: قد وقفت على كتابك يا ابن عمة رسول الله ﷺ، وقد ساءني ما ساءك، والدنيا وما فيها هينة في جنب رضاك، وقد كتبت على نفسي مسطوراً، أشهدت فيه الله وجماعة من المسلمين، أن الأرض والعبيد الذين فيها ملكك دون ملكي، فضُمَّ الأرض إلى الأرض، والعبيد إلى العبيد.

فلما وقف عليه عبد الله بن الزبير، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين، لا أعدمني الله بقاءه، ولا أعدمه هذا الرأي الذي أحله هذا المحل، والسلام.

فلما وقف معاوية عليه ناوله لولده يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه فرحاً، فقال له معاوية: يا بني، إذا ابتليت بشيء من هذا الداء، فداوه بشيء من هذا الدواء، فإنا قوم لم نر في الحلم إلّا خيراً.

ولقد أورد الإمام الماوردي[1] أن الأحنف بن قيس قال: ما عاداني أحد قط إلّا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال:

إن كان أعلى مني عرفت له قدره.

وإن كان دوني رفعت قدري عنه.

وإن كان نظيري تفضلت عليه، فأخذه الخليل فنظمه شعراً فقال:

سألزم نفسي عن كل مذنبٍ ... وإن كثرت منه إليَّ الجرائمُ

فما الناس إلّا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلٌ مقامُ

فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبعُ فيه الحق والحق لازمُ

وأما الذي دوني فأحلم دائباً ... أصون به عرضي وإن لام لائمُ

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت، إن الفضل بالفخر حاكمُ

(1) أدب الدنيا والدين، ص247.

ومما قيل في الحلم:

أحبُّ مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سِباب الناس حلماً وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقه بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد، فما دخل الحلم شيئاً إلّا زانه، وما دخل الجهل شيئاً إلّا شانه.

والحمد للّه رب العالمين.

obeikandl.com